بيكون

لم يظهر اتجاه العقل نحو الفلسفة الحقيقية وطرق التعليم الا بظهور الفيلسوف العلامة بيكون

ولم يشتغل هذا الفيلسوف بالتربية والتعليم فعلا ولم يترك مؤلفات فيهما نظير غيره ممن جاء بعده لكنه فتح بابا لطائفة من المربين في وضع الاراء بعد طول الاختبار والمشاهدات وافضل شيء انصرف اليه هذا الفيلسوف هو وجوب تعلم الفنون وانه لم يغفل كذلك امر طرق التعليم

ولقد نبه افكار الناس الى وجوب درس الطبيعة مباشرة والى التعرف باسرارها وقواعدها فقال ان الطبيعة وحدها يجب ان تكون المنبع الوحيد لاستقاء كل معرفة وعلم

عاش بيكون بين ١٥٦١ و ١٦٢٦ وولد في لندن من ابوين شريفين وظهر نبوغه العظيم وتجلت عبقريته وهو لم يزل بعد في عهد الحداثة . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره دخل جامعة كامبردج وفيها فاق اترابه بما ظهر من ذكائه ونبله ولما احرز الشهادة العليا توجه مع سفير حكومته الى باريس للتمرن في الامور السياسية لكن مدة اقامته في عاصمة الفرنسيس لم تطل لأن الموت عاجل أباه فرجع الى لندن ودخل في سلك رجال الحكومة فيها وشغل مراكز هامة وفي آخر أيامه عين قنصلا لدولته ثم اشتغل بمهام القضاء فكان في وزارة الحقوق وقبل موته بستة أعوام أقيل من عمله لتقصير بدا منه وتلاعب في قضية حكم فيها فانصرف في هذه المدة الى الاشتغال بالفلسفة والفنون والاداب التي طالما تاقت نفسه اليها

واجل خدمة علمية جاء بها هذا الفيلسوف هي ابانته للمجتمع البشري وللمشتغلين بالاداب خاصة ان حفظ قامة من الكلمات والجمل لا يأتي بالمنفعة المرغوبة لاحراز العلم بل يقتضي درس الاشياء نفسها بالتحسس بالطبيعة التي هي مصدر كل غنى مادي وادبي وأشار الى طريقة الاستقراء في درس الظواهر الطبيعية

ومن آرائه في تلك الفلسفة أنه يجب على الانسان درس خواص الجماد . والنبات والحيوان ليس بتقليب صفحات الكتب التي أكل الدهر عليها وشرب بل بدرس

كتاب الطبيعة الحي فالطبيعة وحدها تقدر ان تبين لنا اغلاطنا وان تغذي عقولنا بكل معرفة حقيقية لا وهمية خيالية

وانا ندرسنا الطبيعة بما سطر الاقدمون تحمل الطبيعة جهلنا بها فتضعف تصوراتنا وتلقيه في بحر جهل عظيم . اما اذا طلبنا الحقائق من مصادرها تعلمنا ان نلتفت الى الطبيعة نفسها وأن ندرسها كما هي لا كما رسمها لنا غيرنا ممن يكونون قد قد اخطأوا المرمى ولم يصيبوا كبد الحقيقة .

افتحوا كتاب الطبيعة « يقول بيكون » وقلبوا صفحاته بكل امعان وصبر وتفلتوا من قيود ما تعلمتم بل حطموها وتفهموا الحقائق الكامنة في كل ذرة من ذراتها واستقوا معلوماتكم من نبع الطبيعة العظيم الذي لا ينضب ماؤه بل هو دائم التدفق . عيشوا مع الطبيعة بالحواس التي لا تنام وتعمقوا فيها بافكاركم وتعلموا أن تفهموها عندئذ تقدرون أن تملكوا الطبيعة بما فيها من الاسرار فان السلطة عليها لا تقوى ولا تكون حقيقية الا بالادراك والفهم والاختبار

وتنحصر معاني هذه السلطة على الطبيعة بأن لا نغمض أعين أرواحنا عن الاشياء فيها كي ترتسم أشكالها في مخائلنا كما أوجدها المبدع الازلي . وأنه لمن الخطأ العظيم أن نلبس الطبيعة ثوباً نحوكه لها من خيوط أوهامنا وتصوراتنا الفاسدة

ويرجو بيكون المشتغلين بدرس الطبيعة أن لا يقفوا عند حد ما وصلوا اليه من ابحاثهم وأن لا يقرروه بل أن يعيدوا تأملاتهم كأنهم لم يعلموا شيئاً فان ذلك يدعو الى التأكيد والتثبت إذ أن الحكم العاجل قد لا يخلو من الظلم والحيف وما تراه في ملكوت الارض تراه في ملكوت السموات . فكما أننا لا ندخل هذه الا اذا كنا اطفالا هكذا لا ندخل ملكوت الأرض الا اذا اعتبرنا أنفسنا أطفالا كل يوم وأخذنا ندرس الطبيعة كالاطفال مهما زاد عمرنا واتسعت مدارکنا والمشتغل بذاته قد يصل الى معرفة النظم السائدة في الطبيعة بواسطة ابحاثه وملاحظاته وتطبيق اختباراته وليس بما ساد من المعرفة المدونة التي قد تكون بعيدة عن الصواب والحقيقة

وعدم التسليم بما وصل الينا من الابحاث يجعلنا نشتغل بما عاناه من سبقنا وبذلك يزيد اختبارنا وتعظم تجاربنا ويصح نظرنا وتكبر ثقتنا بأنفسنا وثقة غيرنا

بنا . فالتجربة هي باب المعرفة الراسخة .

لكن تجربة واحدة لدرس خواص شيء واحد من الاشياء في الطبيعة لا تكفي لوضع قانون علم بل بالمقابلة الدقيقة والقياس في الظواهر الطبيعية تتألف القوانين وفي هذا سر الاكتشاف والتطبيق .

وعلى هذا فقاعدة التطبيق هي طريقة معرفة الكل بواسطة أجزائه . أو ادراك القواعد بمعرفة الظواهر أو اثبات الحكم بطريقة التشخيص . وأن أبسط مجموعة من الاختبارات والحوادث اللازمة لكل انسان في هذا الوجود قد لا تفي بغرض التطبيق العقلي الصحيح بل هي مقدمة له

وبسعي بيكون كل تطبيق عقلي قائم على بعض المشاهد فقط لعبة صبيانية ولا قيمة له عنده

ويمثل كل علم في تألفه وقيامه بالهرم الذي يرتكز في أساسه على قواعد وهندسات عدة ورأسه هو تتمة ذلك التطبيق .

فالتطبيق الصحيح في نظر بيكون هو مجموعة مشاهد حقيقية مؤيدة بحقائق راهنة ثابتة . وكما أن مشهداً واحداً للحوادث من غير استنارة بالعقل هو عقيم كذلك فكل تخيل من غير وقوع حادث وتجربة هو عقيم وغير مؤكد ومما يؤكده بيكون أن كل فلسفة ظهرت حتى عصره هي اما مقيدة باقتناع أصحابها بالخيال وأما مطلقة بمذهب القائلين بحرية الفكر

فاصحاب الفلسفة المقيدة هم كالنمل يجمعون الظواهر والمشاهدات ولا يمحصونها وفلاسفة مذهب حرية الفكر المطلقة كالعنا كب يرسلون خيوط أفكارهم مما اختزن في عقولهم ومخيلاتهم من المعلومات لكن النحلة بين الفريقين فانها تجمع المادة من زهور الحقول الواسعة وتحولها بغريزتها الى شكل آخر نافع فالفلاسفة الحقيقيون هم كالنحل يجمعون المشاهد ويختزنونها ثم يطبقونها لتصحيح حقائق ثابتة ولا يكتفون بأعمال العقل فيها والا كتفاء بذكرها لكنهم يحفظونها بنظام تام ليدرسوها بأحكام وتبصرة

ولاستخراج القوانين العامة قد لا تنفع التجربة أو الملاحظة فقط بل يلزم ذلك

لاختبار ولا يجب علينا أن ننظر الى الامور بأعين أنفسنا فقط بل أن نستعين بأعين غيرنا فما نراه نحن صحيحا قد يكون في نظر غيرنا فاسدا فلدى تمحيص الامور والمشاهد تجتمع لدينا الحقائق التي ترتكز عليها الفلسفة الصحيحة

ولقد أثرت مناظرات بيكون ومحاضراته في الفلسفة الكلامية التي وصلت اليه ممن عاناها قبله في القرون الوسطى فأفسدت صحتها فرأى من جاء بعده من الفلاسفة ما يأتي

١) يجب على المربين أن ينموا صروح تعاليمهم على الحقائق والملاحظات لا على الأوهام والخرافات

٢) يجب تمرين الطلاب على الاعتماد على النفس لكي يدرسوا الاشياء بأنفسهم

٣) يجب العناية الدقيقة في طريقة القاء الدروس

٤) يجب الاعتناء بدرس لغة البلاد وتاريخها قبل درس أي لغة أخرى وتاريخ أهلها

وممن اشتهر من الفلاسفة بعد بيكون في القرنين السابع عشر والثامن عشر هم رتيخ واموس وكومينكي ولوك وفينيلون وفرنك وروسو وبيزودوف وروخوف وغيرهم . وكل واحد من هؤلاء أبقى لنا آراء خاصة يجب درسها على كل ذي ولع بالادب والتعليم والتأليف

بيت لحم (فلسطين) .

محمد الصباغ

قال حضرة الشاعر المشهور مصطفى افندي صادق الرافعي في تعليم البنات

يا قومُ لم تخلق بنات الورى ... للدرس والطرس وقال وقيل
لنا علوم ولها غيرها ... فعلموها كيف (نشر الغسيل)
والثوب والابرة في كفها ... طرس عليه كل خط جميل